قيل ان الحكومة بعد ان استولت على رومية منعت الدفن في المقبرة الاولى على تلك الطريقة وأمرت أن لا يدفن الميت الا في المقابر المعتادة كهذه المقبرة الثانية ونحوها وانما حفظت الحق في الاستيداع في المعابد للبابا وللملك دون سائر الناس فهما وحدهما توضع جثتهما في صندوق وتودع في الكنيسة وقد أحسنت الحكومة في ذلك فان من كان عجبا بعظمته عن الناس في حياته ، يجب ان يكون عبرة لعامتهم بعد مماته (للرحلة بقية)

(المنار) ليعتبر المصريون الذين لا يزالون على سنة أسلافهم الفراعنة في تعظيم القبور واتخاذها مواسم وأعيادا بمقابر الامم الاخرى في زينتها ونظافتها وانك لتجد طريق قرافة مصر شر طريق يمشي فيها الناس تكسو سالكيها ثوبا من التراب فوق ثيابه وانه لثوب يكسو باطن الانف والفم وربما تصل أذياله الى الصدر فلا هم أقاموا سنة الاسلام بدرس القبور واهمالها ولا سنة سائر الملل بنظافتها وزينتها

نظام الحب والبغض — تابع ويتبع

باب ٢ كيف حدثت القوة للانسان

تلك القوى (*) تابع أصل وجودها من حيث الجملة لفطرة النوع . واما قسط كل فرد من كل قسم من أقسامها فتابع لتوزيع عام مرتب اقتضاه نظام الوجود المؤسس على وجود المتضادات .

فمن كان يرجو ان ينال نصيباً حسناً من ذلك التوزيع فليعرض عن الذين يجادلون في مثل هذا المقام في عمل الانسان كقول فريق منهم : اذا كانت قوته من صانعه قلت أو كثرت فأي فضيلة أو رذيلة له . وكقول آخرين : اذا كانت قوته منه فلم يعتذر بصانعه ان قصر

ولم نوص بهذا الاعراض تقييدا للأفكار ان تجول في المعقولات كما خولها الفاطر . ولا استصغارا لهذه المسئلة ، بل لأننا نجدنا كيفما قلنا نجري في هذه الحياة على اثابة المحسن ومؤاخذة المسيء . فعلمنا ان البحث عقيم وان أنتج فهو لا يعدو هذه النتيجة الموافقة لما في الانسان من مكنونات الاسرار :

(*) هي المشار اليها في آخر الباب الماضي

ولا نبا ان نقول لأمثال أولئك السائلين : ان الفاطر (جلا وعلا) فطر هذا النوع على صورة يتصرف معها في عوالم الأرض ثم ينتهي الى عالم الغيب ليتم هنالك فيه أمراً لم يبتدأه عبثاً ، وكان من حكمته ان يكون أفراد هذا النوع درجات ، وجعل في الافراد شوقا للترقي من درجة دنيا الى درجة عليا . واغاث هذا الشوق بايجاد استعداد عام في أصل الفطرة للترقي . فمن أزعجه الشوق حتى عرض نفسه لنيل نصيب من الاستعداد العام يوشك ان ينال المنح والتحف عما في أصل الفطرة . ومن أحتج على الشوق في تسفله الخاص بأنه تابع لترتيب الدرجات العام فحجته في نفسه داحضة لان القضاء العام في تفاوت الدرجات يقابله ايجاد استعداد عام . فلئن صح حجة في وجود متسفلين يقابلون متعالين فلا يصح حجة في تسفل فرد بعينه .

هذا هو سبيلنا الذي اتفق البشر كلهم على سلوكه في قوانينهم الحقوقية والجزائية وليس بعد هـذا الا هراء غاليين أحدهما ينكر افاضة القوة الغيبية على القوة الحسية مطلقا والآخر ينكر وجود القوة الحسية مطلقاً .

فنذرهم في هراثهم يتجادلون ونأخذ لانفسنا نصيباً من بناء الحكم على الواقع لنستفيد علماً نافعاً لنا في يومنا هذا وفي اليوم الموعود .

﴿ تدرج الانسان في القوة ﴾

لكل فرد من أفراد الانسان نوعان من القوة (١) قوة طبيعية ـ وهي مامنحه الفاطر لشخصه من قوة جسد وعقل وقلب . و(٢) قوة صناعية . وهي ثمرة التعاون الذي اهتدى البشر لفوائده .

أما تدرج الانسان في القوة الطبيعية فتابع لارتقائه في القوة الصناعية (*) ولذلك نفيض الآن في بيان القوة الصناعية وشرح كيفية حدوثها ونحصر الكلام ههنا في ثلاث روابط فيها نحصر التعاون العظيم الذي ينتج القوة الصناعية . وهي (١) رابطة قرابة الاجساد بواسطة الارحام ، ونسميها رابطة القومية . و(٢) رابطة قرابة الافكار

(*) اقرؤا أول هذا الفصل الى قولنا : نجد علمه الباهر يرجع الى عدم العلم اذ « خلق الانسان جهولاً » . وقوته الرائعة ترجع الى عدم القوة اذ « خلق الانسان ضعيفا » .

بواسطة الاتباع لذي دعوة، ونسميها رابطة الدين والمذهب. و(٣) رابطة قرابة القلوب بواسطة التراضي في اقتسام الاعمال التابعة لحب الزينة وحب التميز، ونسميها رابطة المدنية.

﴿ رابطة القومية ﴾

في الانسان أشواق لا تسكن، لمطالب لا تحصر، فمنها مطالب تقتضيها مادة جسمه. ومنها مطالب يقتضيها جوهر نفسه، ومنها مطالب تقتضيها مادة الجسم والنفس معا. وهذا القسم من المطالب هو الاكثر.

والباحثون في الانسان ينفعهم ان يعرفوا هذا التقسيم فانه يفيدهم في التفريق بين العلل. وما أجدرهم ان يحرصوا على إصابة الحقائق في الحاق كل معلول بعلته. وما أجدر الحقائق ان تكون مستورة لتمتحن طلابها. وما أجدر من توجه اليها بفكر حر متزودا من الاخلاص ان يبلغ ما يسير به الشوق اليه.

وقد عرف من قبل ومن بعد ان الانسان لا يبلغ شيئاً من مطالبه بدون التعاون الا ان يكون شيئاً من بعض المطالب التي يقتضيها جوهر النفس وحده كالجمال المتجلي في الاشباح الطبيعية، بروحه المناسبة للنفس الانسانية. فكأن العجز الفردي بالنسبة الى المطالب التي لا تنقضي تتجدد كل حين داء عظيم يحول بين الانسان وما تطالبه به فطرته. ويهدد كل فرد بالضعف المميت. وكأن التعاون دواء هذا الداء فهو يرفع من أمامه الحوائل، ويدفع عنه القوائل، ويهب كل فرد قسطاً بقدر من القوة المحيية.

لكن هذا الدواء انما يشفي عجز كل فرد من المتعاونين بالنسبة الى غيرهم من انسان وغير انسان. فما الذي يشفي عجز كل فرد منهم بالنسبة اليهم أنفسهم اذا أجمعوا أمرا ان يخذلوه؟ الجواب عن هذا سيتضح من الكلام على الرابطتين الآتيتين وانما عجلنا بايراد هذا السؤال الآن للاشعار بادئ بدء بأن رابطة القومية المؤسسة على مطلق التعاون لا تجعل المتعاونين على الغير في أمن من ان يعدو بعضهم على بعض ولذلك نضطر ان نقول: لئن كانت هذه الرابطة قد نفعت الانسان فان نفعها ابتر وقد ضرته أيضا. قلنا نفعته لاننا لا نستطيع ان ننكر انها قوت منه ضعفاء، وجمعت منه متفرقين، وفي حضنها ربت له أنواعاً من الاستعدادات حتى دبت ودرجت وسارت لتبلغ أشدها. ونقول ضرته

لانها كما جمعت منه متفرقين فرقت منه مجتمعين . وكما عرفت له قربى، نكرت له قربى، وكما آنسته أوحشته . وكما حببته الى طائفة بغضته الى أخرى . ولم تزل واقفة به احقاباً طوالا وقفة اخوانه من الحيوانات التي ينهش بعضها بعضا، لا يميزه عنها الا استواء القامة وابانة هذه اللحمة (اللسان) عن مكنون ضميره . ولا مكنون هنالك غير ما يريد ان يدعو به عصبته لنهش عصبة أخرى . أو لم تروا الى الذين جمدوا على هذه السنة القديمة من أهل البوادي؟ أرأيتم ان أمسك الصانع عنهم أكسيتهم وأخبيتهم والادوات اللازمة لهم هل يخصفون غير ورق الاشجار ، وهل يلبثون الا في جوف الاوجار ؟

فلولا الذين غسلوا عن أذهانهم وضر الاغترار بهذه القوة البسيطة التي لا يعدو نفعها أمن الفرد من القريب بفضل عون القريب لكنا حتى هذا اليوم والانعام سواء . ولكن أولئك النفر لما أتاهم ذلك الذكر وعلموا ان الانسان قريب الانسان ، كيفما كان اللون واللسان ، وأنى كان المسعى والمكان ، أزعجهم الشوق وتشوفت نفوسهم ان تشرف على قوى أخرى هي أسمى من تلك وأنفع للبشر الذين هم اخوان أجمعون فأفاضت عليهم القوة الغيبية ما أفاضت من العناية بهم وبأخوانهم بني الانسان وذلك هو اليوم الذي طفقت فيه مواهب النوع الكامنة تتألق في هذه الارض التي هي عرش سلطانه ، ومجلى تجليات عرفانه . ولا تزال تلك المواهب تزداد اشراقاً ما ازداد الناسجون على منوال أولئك النفر الكرام لهم منا التحيات الطيبات .

وهب أن فينا من لم يصل فهمه الى ما أرشد أولئك اليه فلم يعرف له فائدة عائدة لنفسه في هذه الحياة ولم يؤمن بنصيبه في الحياة الثانية التي يتم فيها المقصود من الجوهر الانساني القائم في هذه الصورة البشرية فهل يحسن به ان لا يفرق في حياته هذه بين ما يجعله عن البهائم رفيعاً ، وما يجعله لها رفيقاً ؟

وها نحن أولاء ننبئكم عن هذه الرابطة بما تعلمون به أنها لا ترفع الانسان على الانعام الا قليلا ونريد ان نزيد في هذا المقام تبياناً لتدرج اتصال الانسان وانفصاله ونجلو في هذا المعنى أقدم شئونه فمن كان قد حدثه بمثله عقله فسوف يحدثه ذكرا ومن لم يكن قد حدثه من قبل فانه ملاقيه مفيداً، وتاليه لذيذاً .

كان الانسان واحداً ابدعه الموجود مثالا لكمال الخلق في هذه الارض . وخلق

فيه خاصة التفريع . أما تفرع أول فرع من ذلك الاصل الواحد فلم يزل عند العقل من الاسرار الغامضة وهو بعد خاتمة الادوار لتكوّن الانسان على هذه الصورة المحسوسة اليوم من توقف التفريع او التوليد على زوجين يتولد من امتزاج خلاصة من جسديهما فرع كاحدهما (أي اما ملقح وهو الفحل او متلقح وهي الانثى)

وللتفريع او التوليد في كل الكائنات الارضية ناموس تكويني هو ناموس التلقيح وهو اقتران أجزاء معلومة ببعضها ليتولد بينها وليد جديد . وقد عرف الآن بالارتقى اليه علم التحليل (الكيميا) ان كل أنواع المواليد الثلاثة تابعة لهذا الناموس . ولذلك أصبح من المعروف كيفية تولد كل شيء الا الأجزاء المولدة . وما يدرينا ما يحدث من العلم بعد .

فتوليد الانسان بتوقفه على العمل المدعو بالتلقيح لاجل امتزاج الاجزاء المعلومة ليس ببدع ولا هو أغرب من توقف النباتات بل الجمادات على ذلك . بيد ان هذه الخاصة التي للانسان في التوليد يشاركه بنظيرها بعض أنواع الحيوان . والبعض الآخر من أنواع الحيوان كالديدان مثلا هو الذي جعل مجالا لظن بعض من الذين لم يختصوا للكتب الموحاة بأن التفريع الاول من الاصل الاول الذي هو الجماد قد وجدت منه فروع كثيرة متعددة وان هذه الفروع في خلقها خاصة التفريع على هذا التلقيح المعروف .

أما نحن المليين فلا نتبع أمثال هذه الظنون بل نتبع ما أنبأ به الوحي فنقول ان الأصل الاول هو الجماد . والاصل الثاني بشر سوي ذو حياة كحياتنا في الاستعداد وهو واحد . والفرع الاول الذي اشتق من ذلك البشر السوي واحد . ثم جعل الفاطر فيهما سوائق طبيعية لاجراء التلقيح . أولها سكون النفس في كل من المتلاقحين واطمئنانها وانبساطها وتلذذها برؤية الآخر وغايتها انجذاب كل منهما للآخر وتلاصقهما بحيث لو ساعدت الخلقة بأكثر من هذا الوجه لتضامت ذرات أجزائهما تمام التضام فصارا جسما واحداً . ولكن الفاطر قد جعل لهذه الكهربائية حداً معلوماً . وسيسألك أهل الشرائع ان تبين لهم السبب في جواز تلقيح هذا الاصل الذي كانه والد لذلك الفرع الذي كانه ولد ثم جواز تلقيح فروعهما بعضها لبعض مع أنهم أخوة .

وتبيان السبب في حدوث الشرائع ثم حدوث الاختلاف فيها أنفع لهم لو كانوا

يتفكرون . وأول واجب ان يعرفوه لعلهم يعلمون بذلك هو اصلاح الشرائع وانفعها ، وابقاها واسماها . وسنتلو عليهم من هذا الحديث لعلهم يشعرون . ليتذكروا ان الشرائع انما تفصل من أجل الاجتماع وان التلقيح في ذلك اليوم لم يكن محتاجا الى شريعة . وأن الذي تمنعه الشرائع ليس كله قبيحاً في ذاته وانما يقبح لعلة من العلل . فلا تعجلوا ولا تعجبوا من ذلك التلقيح الذي هو سبب تكثر هذا النوع . ولا تسألوا عنه ولكن سلوا عن اختلاف هذه الفروع التي أصلها واحد . واليكم هذا البيان الكاشف :

انه لم يكن في تلك الايام هذه البيوت المبنية للوقاية من الحر والبرد فيظهر انهم كانوا يلجأون الى الكهوف والمغارات ويتخذون الاوجار إما حفرا بأيديهم ان كانت أظافرهم يومهم ذلك أقوى من الاظافر يومنا هذا . واما غصبا مما حفره غيرهم من الحيوانات كدأب قبائل منهم ابقاهم الصانع على تلك السنة لتكون حالهم ذكرى للذين ارتقوا وآية يعتبر بها عشاق الارتقاء

ولكن أي المغارات تكفي لان تسكن فيها تلك الفروع التي طفقت تزيد وتتضاعف في كل عام ماشاء الخالق ان تتضاعف . فكأنهم لما تعددوا انشأ كل زوج منهم يلتمس في الارض مغاراً يكنه وأولاده فهذا التفرق في المقر هو اول تفرق وتباعد حصل بين أولئك الاخوة وذراري الاخوة . وهو من الاسباب الاصول في اختلاف البشر هذا الاختلاف العظيم

ولما كان بين الانسان وسائر الحيوان بون في الفطرة والاستعداد وخلقه بهذه الصورة البشرية يضطره في جلب النافع وجب الضار الى التعاون وهو يقتضي اجتماع متعددين ولو قليلا منهم أتم البارئ تكوين هذا المخلوق الحي على هذا الوجه باشياء جعلها من أعظم مميزاته التي تبلغه الغاية من الكمال الذي يقدر لمخلوق من أعظمها (١) الاستعداد للصناعة و (٢) الفضل في قوة الادراك . و (٣) النطق الذي يبين به مدركاته .

فبالنطق تخاطب على ان يتعاون . وبالاستعداد للصناعة بين كل منهم لأصحابه مايصنع مما يلزمهم على ان يكفوه مؤنة مايلزم له . وبقوة الادراك هدي للذي يصنعه بقدر ماهم فيه اذ ذاك من سذاجة الحياة وبقدر ماتضطرهم اليه الحاجات من جلب وجب .

وههنا يحسن ان نذكر قاعدة وهي ان تفرق كل اثنين فأكثر يوجب حرمان الجميع من فوائد ما في فطرة كل من المواهب . واجتماع كل اثنين فأكثر يوجب اشتراك الجميع في الفوائد على السوية أو التفاضل .

فالخوف من حرمان الجميع من جميع المواهب التي لا تثمر الا بالتبادل هو الذي يوجب الاتصال والرضى بما قسم وان قل . أما إباء البعض واستنكافهم عن قبول القسمة المفضولة فهو الذي يوجب الافتراق . ونلخص هذا الكلام بقولنا « بدل الاصل سبب الوصل . وبدل الفضل سبب الفصل . »

هذه أسباب الاتصال والانفصال تجلى مادية فلا ينكرها فكر سليم قط . وهنالك للاتصال أسباب روحية يصورها بعضهم في أشباح من الشعر كقولهم ان في الانسان طبيعة الانس بالجنس ، (أي النوع) ولكنك اذا سألتهم عن سبب الافتراق يحارون . وفي أمن من هذا رجل يقول ان الذي أوجب الاجتماع من جنس الذي اوجب الافتراق وأسباب الافتراق مادية بالاتفاق فتلك مثلها . وللافتراق أسباب أخرى أهمها ارتياد الماء والكلأ والصيد وبعد هذا يبقى علينا بيان اختلاف ألسنته وألوانه وتباعد قرابته . أما اختلاف الألسنة فله أسباب كثيرة

(أولها) الفرق الطفيف الموجود بين منطق كل شخص وآخر . فان هذا الفرق الطفيف يحدث بدوام التفرق فرقا عظيما . ويقلد أولاد المنفصل بعضهم ما خالفه فيه قومه الأولين بغير صنعه كرجل انفصل عن قوم وهو ينطق التاء طاء وآخر يعكس وآخر ينطق الذال ظاء وآخر يعكس وآخر يلفظ الهمزة عينا وآخر يعكس وآخر يلفظ السين صادا وآخر يعكس وآخر ينطق الجيم شينا وآخر يعكس وآخر لا ينطق بالقاف وآخر لا ينطق بالراء وآخر لا ينطق بالتاء وآخر لا ينطق بالكاف وهكذا فهذا أكبر باب تفرقت منه اللغات وتقصت به حروف لغة عن أخرى وكل هذا الذي مثلنا به محسوس نسمعه في كل يوم .

(وثانيها) رؤية كل مجتمعين في جهة من الارض ما لم يروه من قبل تفرقهم عن غيرهم من نبات وجماد وحيوان فيحتاجون ان يعبروا عنه في تخاطبهم باسم من الاسماء . وهذا باب كبير أيضا .

(وثالثها) تنويع الاساليب في البيان وهو الذي أحدث الكنايات والمجاز والاسماء المشتقة في كل لغة . ويطول الزمن فيهجر الكلمة الموضوعة بادئ بدء ويقوم المجاز أو المشتق عند قوم مقامها ولا يفعل هذا الآخرون بل قد يفعلون بكلمة أخرى ما لم يفعله بها الاولون وهكذا فيقع البون .

(ورابعها) انه قبل الاجتماعات العظيمة كانت لوازم الانسان بسيطة قليلة وعلى مقدارها كان الكلام بسيطا قليلا أيضا وبعد ان تفرقوا حدث في كل طائفة منهم من الكلام ما كان على مقدار اجتماعهم ولوازمهم وأخذهم من غيرهم ومبلغ ما حدث عندهم من الصنائع والاعمال .

(وخامسها) عدم وجود حوافظ تحفظ اللغات من الاصطلاحات المغيرات للاوضاع فلا يشعر كل قوم بما تغير عند الآخرين فتكون الفرقة .

وهذه الاسباب التي بيناها تعد أسبابا في كل لغة لما يسمونه الترادف مثاله في لغتنا: أعطى . وآتى . من قبيل الباب الاول . والليث . والاسد . من قبيل الثاني . والسيف . والحسام . من قبيل الثالث . والخياطة . والدرز . من قبيل الرابع . والدعاء . والنداء من قبيل الخامس .

وعلى القارئ الذي وعى ما قررناه ومثلنا به ان يتعرف بتدقيقه فروع هذه الاسباب وأن ينعم تفكره في هذه الابواب فانه قد يهتدي من التدقيق بالفروق التي بين المترادفات في لغة أو الفروق التي بين لغة وأخرى في المفردات الى ما تقر به العين من المعرفة اللذيذة المفيدة .

وعليه من بعد أن عرف تأثير التفرق في الديار على الالسنة ان يعلم ان هذا التفرق هو المؤثر على الالوان أيضا . فان فريقا مكثوا فيما جاور خط الاستواء فاسودت جلودهم وآخرين لبثوا منذ القديم على شطوط الانهار لم ينتقلوا فاصفرت ألوانهم وشوهت خلقتهم وآخرين تنقلوا في البلاد ثم توسطوا المعمورة فابيضت ألوانهم . واعتدلت خلقتهم . وصح تقويمهم . وذكت عقولهم . هكذا قيل من قبل وهو يشعر بأن كل فريق من هؤلاء أو لو قربى فيما بينهم . وما يجدينا هذا ان كنا لا نعرف ما دون ذلك من القرابات والانساب .